ترجمة

السيّد فرنسوا بيكه

لحضرة الاب بطرس ساره الراهب اللبناني

توطئة

يسرُّنا ان ننشر في كل فرصة فضل اولئك الرجال الابطال الذين عطَّروا بسيَرهم ومآثرهم الطيبة بلادنا الشرقية وبهم توثَّقت علائقنا القديمة بالدولة الافرنسية الكريمة. واذا اتينا على نشر مثل هذه التراجم فانما نحن نقدّمها لابناء هذا العصر عبرةً لقوم يفقهون فيجدون فيها درساً لذيذاً ومفيداً يُطلعهم على احوال السلف وحوادث الايام وينكّب بهم عن المسالك المعوَّجة الخطرة الى جادَّة الحقّ والصواب ويبعث فيهم روح الاستماتة والتفاني في خير الوطن والعمل على الألفة والاتحاد الذي فيه القوة وعمران البلاد ويُقبل بهم الى التحدّي باصحاب الفضل الجزيل فان ذكر مآتيهم الغرّاء والاقرار بجميلهم جميل

فلاجل هذه الغاية قصدنا نشر ترجمة صاحب المبرّات الطيّب الاثر السيد فرنسوا پيكه الذي شغل في بلاد المشرق ثلاثة مناصب خطيرة كان في كلّها رجلاً مقداماً ليس لهُ من مقصد في جميع اعماله غير مجد الله تعالى وخير وطنهِ واصدقائهِ الشرقيين فان في ترجمته هذه فائدة للتاريخَين المدني والكنسي معاً كما سترى

وقد استندنا في ترجمته هذه على مؤلَّف نادر الوجود يحتوي سيرة السيد پيكه وضمنهُ اسقف غراس السيد دَنتلمي (١ فطُبع في باريس سنة ١٧٣٢ . منهُ نسخة في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين وقد استقى مؤلفهُ اكثر معلوماتهِ من مكتوبات السيد پيكه نفسهِ ومن شيخ فاضل كان في خدمة ذلك الحبر المفضال . واستعان

١) هذا عنوانهُ : Vie de Mgr François Picquet, par *Cl. L. Oct.* D'ANTELMY évêque de Grasse, *Paris* MDCC XXXII

ايضاً ببعض اصدقائهِ منهم المسيو فرنسوا مالڤال من مرسيلية الذي نقل لهُ كل ما حوتهُ من المعلومات عن بيكه تواريخ (annales) الآباء المرسلين الكرمليين . وكان من اقوى مناصريه في هذا العمل الاب مرسلينوس رئيس معاملة الارض المقدسة والوكيل العام لرهبانية الكرمليين الذي اخذ كثيراً من مرويَّاتهِ من سجلَّات مجمع انتشار الايمان بواسطة الكردينال سكريبنتي (Sacripanti)

وقد طالعنا ما جاء عن المترجم في مجموعة الاثار المسيحية في الشرق للمرحوم الاب رباط اليسوعي . وقد ذكره العلامة الدويهي مثنياً على همتهِ العالية وافضالهِ العميمة (راجع تاريخ الطائفة المارونيَّة وجه ٣٢٩)

ونحن نقسم هذه الترجمة ثلاثة اقسام بحسب الادوار الثلاثة التي تقلَّب فيها المترجَم كتفصيل دولتهِ ثم حلب ثم بصفة كاهن ومطران واخيراً كسفير فرنسة في العجم

القسم الاول

شبابه وفضيلته

مبادئ حياتهِ

﴿اهلهُ ومولدهُ﴾ وُلد فرنسوا بيكه في مدينة ليون يوم عيد الفصح في ١٢ نيسان من السنة ١٦٢٦ واصطبغ باء العماد في كنيسة القديس منصور واسم ابيه غودفروا بيكه وامهُ حنَّة دي مونيري وكلاهما من أُسرة عريقة في الشرف والقِدَم قد جمعا بين التقى والغنى الكثير . وكان والده صاحب مصرف في ليون حائزاً بصدقه واستقامتهِ على ثقة جميع المحالّ التجاريَّة في اوربَّة . لكن الله باحكام عنايتهِ الغامضة جرَّدهُ من كل ثروتهِ ولم يبقَ له سوى مال زوجته يستعين به لقيام عيلتهِ المؤلفة من ستة اولاد ثلاث اناث وثلاثة ذكور ثالثهم فرنسوا بيكه صاحب الترجمة

اما شقيقا فرنسوا فبعد ان انجزا دروسهما زهدا في العالم وحدَتْ بهما نعمة الله الى الدخول في رهبانية الكرمليين الحفاة . وترهبت اثنتان من شقائقهِ الواحدة في دير القديس برنردوس والاخرى في دير الزيارة في ليون . وقد ابدى فرنسوا منذ حداثتهِ عما يكون لهُ من مستقبل باهر . وكانت مخافة الله تنمو فيهِ بنموّه في العمر فما بلغ السادسة عشرة حتى ازداد ميلهُ الى الصلاح وظهرت عبادته وتقواه بملازمة كنيسة

بنات مريم التي كانت قريبة من بيته . فكان يحضر اكثر الاجتماعات الروحية والقداس الالهي الذي كثيراً ما كان يسبق فيخدمه ويُعنى بتنظيف آنية الكنيسة . وكان ذا مزاج دموي قوي يميل به الى اللهو واللاذ فقمع ميله هذا الردي وصانهُ الله من معاثر الشبيبة التي كان معرَّضاً لها في ليون مسقط رأسهِ وذلك خصوصاً بحياده عن عشرة الشبان النازعين الى الملاهي واللذّات الباطلة

﴿أسفارهُ﴾ انجز فرنسوا دروسهُ الثانويّة والفلسفية ممتازًا بين اقرانه بما طُبع عليهِ من الذكاء وبانكبابهِ على الدرس بحرص وثبات مع ملازمته لكل فرائض دينهِ الذي كان يقدّمهُ على كلّ مهامّ حياتهِ . واذ لم يكن لابيهِ من سَنَد يستند اليهِ في شؤون عيلتهِ سواه قطعَهُ عن الدرس وصرف همّتهُ الى الاشغال البيتيَّة وتدبير المنزل ثمّ اراد ان يمرّنهُ على الاسفار للمتاجرة مع البلاد الاجنبيَّة . فادَّت بهِ اسفاره الى زيارة رومية وكنيسة لوريتو الشهيرة ومرَّ في عودتهِ على اهمّ مدن ايطالية فكان وصولهُ الى وطنهِ بعد اشهر في اواخر سنة ١٦٥٠ . وكان لم يرغب في جميع اسفارهِ الّا ما هو مفيد وشريف كما شهد بذلك رفقتهُ وسطره هو في مذكراتهِ . وكان في ليون موضوع إعجاب مواطنيهِ إلا تحلّى بهِ من الصفات ممتازًا بتقواه وطهارة حياتهِ موجّهاً رغبتهُ الى عمل الخير والقيام بسائر واجباتهِ واتمامها . ولمّا دنا وقت اختياره حالةً من حالات الدنيا لجأ في الصلاة الى إلهام الله تعالى كالوف عادتهِ معتمدًا على احد المرشدين الاتقياء الفطنين . فلم يرضَ في الحالة التي يختارها في دنياه الّا بما يعود على خلاص نفسهِ غير ملتفت الى خير زمني او شرف او رغد عيش او منفعة شخصية

وكثيرًا ما كان يوجه نظرهُ الى الترهُّب على مثال اخويهِ واختَيهِ اذ كان يرى الدير حمى التقوى وميناء الخلاص يتحصَّنُ بهِ فينجو من شرور العالم ويأمن على خلاص نفسهِ . لكنَّ الله تعالى الذي كانت مقاصده في ذلك الشاب فوق ما كان يتصوَّر اراد ان يضع على المنارة سراجاً لا يرغب الّا في الاختفاء تحت المكيال . فتحوَّل فرنسوا عن فكرتهِ الاولى إمَّا لداعي صحتهِ ومزاجهِ النحيف الذي لا يستطيع ان يتحمَّل العيش القشف في الرهبانيَّة . امَّا حبًّا واحتراماً لوالديه الطاعنين اللذين كان لهما ابنهما هذا عضدًا وحيدًا . فعقد العزم حينئذٍ على البقاء معهما ليساعدهما في جميع حاجاتهما الى ان يرشدهُ الله بنوع صريح الى الحالة التي يختارها لهُ والطريق التي يتوخّاها

﴿ تعيينهُ لقنصلية حلب ﴾ وفي تلك الاثناء عرضت بعض ظروف عائلية اضطرتهُ الى ان يسافر الى نورمندية وانكلترة وفي عودتهِ اقام مدة في باريس عرف فيهِ اهلها روحاً طيبةً تقرن حميّة الشاب بحكمة الشيوخ. وكان لذلك موضوع اعتبار الكثيرين من اهل الفضل والنبل منهم السيدة الدوقة داغويليون (Mme d'Aiguillon) التي اشتهرت في فرنسة بعظم تقواها وثقوبة ذهنها ومحبّتها لصنع الخير ولتأييد الاعمال الرسولية في داخل الدولة وفي الخارج. فحدث أن فرغت قنصليّة حلب سنة ١٦٥٢ بوفاة قنصلها انج بونين (Ange Bonin) المولود في مرسيلية وكانت تلك الوظيفة مطمحاً لابصار الكثيرين لمنافعها الجمّة ولأهمية مركزها لعلاقتها ليس فقط بالتجار الافرنسيين وغيرهم في الشرق بل بعمّال السلطان والباب العالي فضلاً عن انها كانت محطّ رحال التجار الآتين من الشرق الاقصى ومنها الطريق في البرّ الى بلاد العجم وغيرها من الدول الشرقية فكان لا بُدَّ لقنصلها ان يكون محنّكاً في الادارة قديراً على احراز الثقة والنفوذ لدى اولياء الامور وجديراً بان يدافع بحزم عن حقوق التجار وينصفهم بعدلهِ واستقامتهِ وينتصر لهم عند الولاة العثمانيين وعمّال السلطان الذين كانوا يظلمونهم. ومن واجبات القنصل الذي في البلاد غير مسيحية ان يدافع عن النصارى عموماً وعن الكثوليك خصوصاً لئلّا يسومهم الذوات خسفاً

فتوجّهت الابصار الى فرنسوا بيكه وانتُخب لهذا المنصب الخطير وصدّق انتخابه البابُ العالي لانه رغم كونهِ في السادسة والعشرين من عمره كان متحلياً بجميع الصفات اللازمة لهذا المقام من وداعة تسترقُ القلوب وفطنة نادرة وذكاء غريب ومعرفة واسعة في الادارة. ذلك فضلاً عن خبرتهِ وحسن سيرتهِ وكلاهما يضمن نجاحهُ في مهمّتهِ ويجعلهُ اقوى عضد للدين بمثالهِ الصالح. وقد سبق انَّ ميلهُ كان الى خدمة الله في الحالة الاكليريكية او الدعوة الرهبانية اكثر منهُ الى الانشغال في مهامّ العالم فلم يقبل ذلك المنصب الَّا اتماماً لرضى والديه اللذين كانا يعلّقان عليهِ الامل بقيام عيلتهما وتلبيةً لرغبة السيدة الدوقة داغويليون محاميتهِ التي كانت تؤمل انه يؤدي في وظيفتهِ خدماً جليلة للكنيسة وللوطن ويربح بذلك ثروة وافرة

وبعد ان عقد العزم على استلام مهمتهِ رجع الى ليون لوداع والديهِ وما عتَّم ان سافر الى مرسيلية حيث كانت السفينة بانتظارهِ فأبحر في شهر ايلول من سنة ١٦٥٢.

وبعد سفر ميمون دام شهرين رست به المدينة في اواخر تشرين الثاني في ميناء الاسكندرونة فاستقبلهُ فيها نائبا قنصليَّة فرنسة وانكلترَّة وتوفَّروا على الاحتفاء بهِ والقيام بضيافته حتى ذهاب القافلة الى حلب التي وصلها بعد سفر ثلاثة ايام

﴿دخولهُ حلب﴾ وكانت حلب في ذلك الحين عاصمة سورية الشماليَّة ومركزاً للباشا حاكم الولاية ولقناصل الدول القائمين بحماية رعاياهم وحريَّة تجارتهم. وكان سكَّانها من مسلمين ونصارى لايقلُّون عن ثلاثمائة الف نفس وكانت شهرة المسيو بيكه قد بلغت مسامع الحلبيين وعرفوا ما فيهِ من حنكةٍ ودراية ونزاهة واستقامة فنزل في قلوبهم من قبل ان ينزل بين اظهُرهم ولذلك كانوا ينتظرون قدومهُ بذاهب الصبر وقد احتفوا بهِ احتفاء عظيماً . فذهبت قناصل الدول في مقدمة الشعب الى استقبالهِ على مدخل المدينة واتوا بهِ الى دار القنصلية بابهى مجالي الاكرام والاعتبار. بحيث كان يخيَّل الى الناظر على قول شاهد عياني ان ذلك الاستقبال الحافل كان اولى بقنصل جميع الطوائف منه بقنصل دولة فرنسة وحدها . فكان كل الشعب يرغب بهِ وقد أُثلجت صدورهم وبسمت ثغورهم برآه كأنهم يشعرون سلفاً بما سيلقون من الغبطة والهناء مدة قنصليتهِ فكان يقابلهم بالشكر على تلك المظاهرات الحبيَّة وقد اعتقد جميعهم ان الله ارسلهُ لينقذهم ممَّا كانوا يقاسون من المظالم

وبعد ان قام بالواجب نحو ولاة الامور في البلد وقبل التحيَّات من الاكليروس والمرسلين والتجار اراد ان يقف على احوال التجارة كما تقتضيه وظيفته . فما لبث ان استبطن امرها وسبَر غورها بثاقب عقلهِ وبُعد نظره الذي اغناه عن البحث والتنقيب. فوجد ان احوال التجارة مختلَّة لسببين هما عدم ثقة التجار وظلم الباشاوات . فعزم ان يصلح كل اختلال رآهُ . وبلوغاً للنجاح في عمله شرع يمنع جور الباشا واستبداده معتقداً انهُ اذا كسر شوكة وكبرياء ذلك الظَّالم سهَّل كل عقبة في سبيل وظيفتهِ واراح الرعية من كل جور وظلم

﴿فرنسوا بيكه وباشا حلب﴾ كان باشا حلب وقتئذٍ يسمى بشيراً وكان رجلاً جائراً عاتياً طمَّاعاً بخيلاً اعتاد النهب والسيطرة لاجل جمع الدرهم . على ان رعايا الاتراك كثيراً ما كانت تئن تحت نير جور الولاة وكان الباب العالي واقفاً على تلك المظالم وسوء الادارة لكنَّهُ كان يغضُّ الطرف عنها تاركاً الولاة يمتصُّون كالعلقة دماء

رعاياهم حتى اذا ملأوا اكياسهم أمر السلطان بقتلهم فيستنزف لخزينته ما اكتنزوه ظلماً كأنهُ بعزلهم او قتلهم يدافع عن الشعب المظلوم. فباشا حلب كان بما فيهِ من شحّ ووقاحة على شاكلة الحكّام سلفائهِ. غير انه اضطرَّ ان يغيّر خطّتهُ مع التجّار الافرنسيين اللائذين بحماية قنصلهم فرنسوا بيكه الذي مخافة ان يسبق الباشا ويشي بهِ الى الباب العالي لمقاومتهِ طفيهُ وبغيهُ اسرع واستدرك الامر فشكاه هو واستعان في اثبات شكواهُ بالمسيو دي لاهاي (De la Haye) سفير الملك لويس الرابع عشر في الاستانة وهو من خيرة الافرنسيين. وعرض بالتفصيل كل ما كان يأتيهِ الباشا من المظالم وما يفرضهُ من الضرائب على التجار مما يعرقل التجارة ويضرّ بخزينة الدولة

فلمّا اطّلع الوزراء على تلك الشكوى لم يسعهم الّا ان يلوموا اشدَّ اللوم ملك ذلك الباشا لما الحقهُ من الضرر بحرّية التجارة وامروهُ ان يرعوي عن سوء ادارتهِ وان يقف على خاطر قنصل فرنسة وان يتفاهم واياه بعد ذلك. فاكتسب المسيو بيكه بغيرته وجرأتهِ هذه ثقة الشعب واحترام التجار وكان غير المسيحيين يتعجّبون من استقامتهِ وعدلهِ. فانه جعل وظيفة القنصلية نوعاً من القضاء بحيث يكون للقنصل الولاية على التجار ويحكم في دعاويهم التجارية حكماً جزماً. وكان يُفرغ احكامهُ في قالب اللطف والوداعة حتى مع القضاة العاتين فيكفّهم عن سوء تصرّفهم ويردّهم الى الصواب. فاصبحت قنصليته كمحكمة كنانية وهو فيها اشبه براعٍ واسقف منه بقاضٍ وقنصل. قال عنه بعض الثقات: انهُ كان يقوم بهاتين الوظيفتين بوداعة ملائكية وكان الجمهور يشكر الله الذي اعطاهم مثل هذا المحامي المحبوب. وكانت العادة والشريعة تخوّلهُ حقوقاً كثيرة لكنهُ لزم في استيفائها حدّ الاعتدال فنال إعجاب التجار بنزاهتهِ وتجرّدهِ فقدّموا فيهِ عريضة شكر بتاريخ سنة ١٦٥٦ يثنون فيها على عدالتهِ وإبائهِ ذاكرين تخفيضهُ الضريبة على اموال التجّار فجعلها نصف غرش بعد ان كانت اثنين بالمئة وانَّ التجارة بعهدهِ راجت رواجاً عظيماً لمنعهِ كلّ جور من قبل الباشا وعمّال الدولة. فذهبت له شهرة في انحاء البلاد لم ينلها قنصل سواه. وكان كل ما يأتيهِ في قنصليتهِ من ربحٍ وفائدة يحوّلهُ الى الخير العام وتعزيز الامور الدينيّة دون ان يفكّر بنفعهِ الخاصّ

﴿دفاعهُ عن حقوق القناصل﴾ وبينا كان التجار يتنعّمون بتلك الاجرآت العادلة عاد الخلاف لتجدّد بين القنصل والباشا . وكان القنصل في موقفهِ هذه المرّة ايضاً ملازماً جانب العزم والحزم . وكان سبب الخلاف ان افرنسيا وتركيا تشاجرا وبعد ان تقاذفا الشتائم وتهدّد احدهما الآخر توصّلا الى الضرب وانجلى العراك عن موت التركي . ولما لم يتمكن اهلُ القتيل من الإثار لان القاتل لجأ الى القنصلية شكوا امرهم الى الباشا فارسل هذا الى القنصل يطلب تسليم الغريم آملاً من مروءتهِ ان يجيبه بالايجاب ، لكنّ القنصل اجاب بأنهُ لا حقّ لغيرهِ على رعايا ملك فرنسة وانهُ هو الذي يحتكم في هذا الامر وانه لا يستطيع ان يلبي طلبهُ ما لم يجحف بحقوق وظيفتهِ ، فغضب الباشا من هذا الجواب وارسل على الفور جنداً ليقبضوا على القنصل . فلم يجزع بيكه من هذه المعاملة الباغية بل ظلّ رابط الجأش وهم بتسليح قومهِ الافرنسيين بحيث اصبحوا قادرين ان يقفوا وقفة الدفاع بازاء اعدائهم المتآمرين عليهم . فلما رآهم الجند على تلك الأهبة رجعوا أدراجهم ورأى الحاكم عجزهُ عن فضّ ذلك المشكل بالقوة فدعا القنصل الى داره ليتباحثا في الامر ويصرفاهُ بالطريقة الحبيّة . فابى بيكه تلبية الدعوة حذرًا من حدوث ما لا تُحمد عقباهُ اذا لحقهُ إهانة او تعدٍّ ما . ولم يتعلل الّا بعد الحاح الافرنسيين عليهِ واتخاذه جميع التحوُّطات خشيةَ الغدر بهِ . فقابلهُ الباشا مبدياً لهُ استياءه من رفضهِ طلبهُ وعدم تسليمهِ القاتل فقال : « اني لم اعمل الّا بحسب الاصول والاتفاقات الدولية » . وأراه اوراقاً تنصّ على ذلك فكان مقتنعاً لكنهُ طلب ان يُشنق الجاني فأبى القنصل لانه كان ثبت لهُ ان الافرنسي لم يكن مستحقّ الموت اذ كان مدافعاً عن نفسهِ . فنصح لهُ واخرجهُ خفيةً من حلب مخافة ان يُحدِث وجودهُ في المدينة بعض المشاكل

ووقع حادث آخر على هذه الشاكلة : قبضَ الاتراك على راهب كبوشي وجدوهُ يقدّس بعد شروق الشمس ولم يكن ذلك جائزًا للمرسلين في غير معبد القنصلية . فأودعوهُ السجن هو والاخ الخادم واذ دري القنصل بالامر ذهب حالًا هو وجماعة من الافرنسيين الى السراي وطلب من الباشا الإفراج عن الرَّجلَين فلم يكترث الوالي لكلامهِ فخاطبهُ القنصل عندئذٍ بلهجةٍ جريئة حرّة امتعض منها الباشا فامر بان يقتلوا ذينك السجينين . لكنّ القنصل عرف ان ذلك الامر انما هو وسيلة منهُ

لابتزاز المال فاسترضاه بان قدّم له من الدراهم ما خلّص به السجينين

﴿ نكبة بشير باشا ﴾ وحدث يوماً ان اللصوص المغاربة هجموا على نائب القنصلية الفرنساوي فردّهم بيكه هو ومنتا رجل افرنسي واراح المدينة من شرّهم فآل ذلك الى خجل الوالي الذي تغاضى عن هذا الامر الجوهري . وكان الباب العالي واقفاً على هذا التغاضي ومستاء منهُ فاراد ان يغتال الباشا كما فعل بغيره فرفع هذا راية العصيان وشقّ عصا الطاعة هو وغيره كثيرون من الآغاوات الذين كانوا يخشون ذات العاقبة اي القتل واقاموا في حلب وضواحيها كما في معقل حصين وكان عند الثائرين مئة الف مقاتل عسكروا في الصحراء ليحموا المدينة

فكانت تلك فرصة لا انسب منها لبشير باشا للتمرُّد على مولاه وليتنتقم ايضاً من قنصل فرنسة بيكه الذي كان بفضله وجميل فعاله كقذًى في عينه . لكن الباشا لم يُقدم على ذلك لغاية في النفس فاراد ان يتقرب من بيكه وان يجدّد علاقاته الودية معه اكثر مما كانت مع الباب العالي وقد اضطرّه الى هذه المعاملة ما كان يراه للقنصل من الجرأة وما له من النفوذ والمنزلة عند المسيحيين وعند الافرنسيين الذين كانوا يديرون حركة المدينة بتجارتهم ومعاملهم . فاستشارهُ الباشا في الامر فلم يحبّذ القنصل تمرّده على سيده بل اشار عليه بآرائه الرشيدة ان يخلص الخدمة للسلطان فذلك اوفق له واسلم للعاقبة

فرضخ الباشا لهذا الرأي السديد الذي حقن الدماء ووقى البلاد من الويلات والنكبات . ولذلك ازداد بيكه اعتباراً وقيمةً في عين الشعب وعرف الباشا نفسه له هذا الاخلاص والمعروف وزاد ولاءهُ نحوهُ . ودلالةً على حبّه لهُ وولائه نصبهُ قاضياً ليحكم في جميع دعاوى المسيحيين السياسية والجزائية . فكان يُجري القضاء بكل نزاهة وعدالة حتى ان غير المسيحيين كانوا يرفعون اليه دعاويهم ليحكم فيها لثقتهم بعدالته وبفضله وكان يهتمُّ لهم ويساويهم بالمسيحيين

ولم يكن يثني رغم مهامّ القنصلية والقضاء فرضاً لازماً له بصفته مسيحي اي اعمال البرّ والحسنات . وكان مدخوله من وظيفته يساعدهُ على ذلك ولاسيما بعد ان نمت التجارة بفضله وحسن ادارته وكثرت ارباحها . فازدادت مداخيل وظيفته الثروة كثيراً لكنه كان يعدُّ كل ما يأتيه من المال كنزاً وضعهُ الله بين يديه ليعبح به

السماء ويستجلب نعم الله ورضوانهُ عليه . فكان يتصدق على الفقراء في كل يوم وما كانت صدقته تفوت فقيرًا في حلب وكان يقتصد في نفقاتهِ ويتخلّى حتى عن ضروريّاته احيانًا لكي يحسن الى الفقراء وقد فتح بيتهُ لهم منزلًا من دون تمييز بلادٍ او مذهب كأنّي به ما اتى حلب ونُصّب فيها قنصلًا الَّا ليشتغل ويعمل للمساكين الذين وقف نفسه على مساعدتهم وتوزيع الحسنات عليهم . وكانت صدقاته شاملة تتناول حتَّى القرى المجاورة للمدينة

وكان لرغبتهِ في المثل الصالح وعملًا بتعليم الانجيل لم يأنف بما فيه من روح الوداعة والاتضاع المسيحي ان يُدخل وهو في وسط مدينة غير مسيحية عادةَ غَسْل الارجل يوم خميس الاسرار لاثني عشر فقيرًا كان بعد الغسل يبسط لهم مائدة انيقة ويخدمهم بذاتهِ ثم يصرفهم موقَّرين بالحسنات وذلك تكريمًا ليسوع المسيح في اخوتهِ واعضائهِ الفقراء . وكانت تلك الحفلة المؤثرة التي يقيمها كل سنة بكل نظام وترتيب وخشوع تستنزف العبرات من جميع الحاضرين

(وإصلاحهُ لاحوال المسيحيين) وكان ينظر بعين دامية الى فقر الكنيسة الشرقيّة الروحي والى حالة المسيحيين المنفصلين عن الكنيسة الرومانيّة الذين لم يكن عندهم من الدين سوى القشور . والكاثوليك انفسهم ما عدا الموارنة منهم كان قد دبَّ الفساد اليهم وأَضرَّ باخلاقهم فأصبح الدين في تلك الارجاء أشبه بقَبَس ينطفئ اذا هبَّت عليهِ نسمة محنة خفيفة . فكان يبذل كل المساعي الجدّية لانعاش روح الدين في الشعب المنفصلين فدعا يومًا بطاركتهم واساقفتهم الى وليمة انيقة مع بعض اعيانهم وخطب مودَّتهم بملاطفته اياهم فتركوا الحريَّة للمرسلين ليدخلوا بيوت الشعب ويعلموهم تعليم الايمان الحق . وكان القنصل من جهتهِ يقربهم بموالاتهِ اياهم واعطائهم مثالًا صالحًا ويساعدهم في دعاويهم لدى الباشا

وفي تلك الغضون حدث ما وقف عائقًا في نجاح الاعمال الرسولية فكاد يميد الخلاف بين القنصل والباشا بسبب مدير الجمرك المدعو اسحق اليهودي المذهب المبهور بالاصفر الرنَّان فانَّهُ إشباعًا لمطامعهِ اراد ان يتقاضى رسومًا فاحشة من التجار الافرنسيين . فعارضهُ القنصل وطلب من الباشا ان يساعده على قمع جشع ذلك اليهودي فلم يسمع لهُ لانهُ كان مرتشيًا من اسحق المشار اليهِ الذي تقاضى الرسم كما ارادهُ . فصبر القنصل

على الضيم خشية المنازعة وشكى الامر الى الباب العالي وكان احد الوزراء قد اوغر صدر السلطان على بشير الظالم والثائر . فارسل مرتضى باشا لمقاومته . فأتى هذا حلب بجيش جرّار وما سمع بشير باشا بقدومه حتى خاف وخرج من المدينة الى الضواحي المدعوة جُدَيدة

اما القنصل فامر ان تُحفظ النساء والبنات المسيحيّات في أحياء محصّنة صوناً لحياتهنّ وشرفهنّ . فدخل القائد المدينة ظافرًا واستلم مقاليد امورها وانقاد لهُ سكانها وكان على أتمّ ولاء مع المسيو بيكه لان السلطان مولاهُ كان امره بذلك وبان ينتقم من اسحاق اليهودي الجائر وان يخضع ويذلّ ذلك الباشا الثائر . امّا موالاتهُ للقنصل فكانت عظيمة حتى انهُ اراد ان يتقدّمهُ في زيارته لهُ لكن القنصل لم يرضَ بل قام بواجب زيارة الباشا الجديد في السراي هو واعيان الفرنساويين . وكان الباشا مُعجباً بانسه ولطفه ومكبرًا قدره وحكمتهُ . وبتصافاة الاثنين سادت الراحة والطمأنينة في المدينة اذ انتصر الحاكم الجديد على الباشا الثائر واعوانهِ وفتك بهم وضمّ جميع الاهلين اليهِ فقدموا له تمام الطاعة والخضوع

وقد ازدادت الصداقة تمكناً بين القنصل والباشا بحيث تمكّنت الالفة وبطلت الكلفة فلما زار الباشا المسيو بيكه زيارة صديق لصديقهِ عانقهُ وقال لهُ : « عافاك الله يا ابا الدقن الشقراء انك ماهر في ادارتك الامور فاني شاكر لك جدًّا » ودعاه أبا الدقن الشقراء لان بيكه تبعاً لعادة البلاد وولائها كان مُرخياً لحيتهُ الشقراء التي كان يعجب بها الاتراك . وكان الباشا يستشيره في اجراآته وكانا يتزاوران ويتهاديان الالطاف والثياب الثمينة وقد خلع الباشا على القنصل بُردة من حرير زرقاء لا يلبسها في حلب غير المسلمين وقدم لهُ ايضاً جوادًا مطهّماً . وبتمكين الصداقة بين القنصل والحاكم استحكم الولاء ايضاً وحسن التفاهم بين الافرنسيين والمسلمين وزال كل نفور وتباعُد وكانت تضمُّ الطائفتين المجتمعات العمومية والروايات التمثيلية التي كان يتنافس القنصل والباشا في توفير الوسائل لتمثيلها توثيقاً لروابط الاخاء والمودة . وقد حضر الباشا رواية افرنسية سُرّ جدًّا بتمثيلها فأعدى الممثلين الفي ريال مجيدي دلالة الرضاء ومن مجاملاتهِ الخارقة العادة انه اراد ان يكرم صديقه بيكه فعزمهُ الى حفلة شائقة كان دعا اليها بعض اوانس وجهاء المدينة فكان بيكه يجاملهنّ وهو في غضاضة

شبابهِ متصوناً عفيفاً لا يمس زنبقة طهارتهِ اذى. وقدّم لـه الباشا اثنتين من اجملهن فقال لهُ القنصل: «اني شاكر لك جداً هذه المنّة التي لا استطيع قبولها لاني تقيّدت بنذر الزهد بالعالم واعتناق الدعوة الاكليريكية» فعجب الباشا من رفضه هذا ومن تلك الفضيلة السامية في من هو غضّ الشباب وابدى لهُ عن زيادة اعتباره اياه وتعلقه به

وقد بلغت ثقة الباشا وصداقته للقنصل الى حدّ ان اقامه موزعاً المطايا واعتمده في جميع اشغالهِ والقى بيده مقاليد اموره. وكان جميع التجّار يهرعون اليهِ في جميع حاجاتهم. فاقامته حينئذٍ هولندة قنصلاً لها في حلب. وقد شهد شاهد عياني غير افرنسي بما كان للاوربيين من الهناء والراحة بفضل نفوذ المسيو بيكه وبغيرة هذا البطل على الديانة والكنيسة. وهذا الشاهد هو الاب قنسان الكرملي الحافي الذي كتب فيهِ كتاباً ضافياً خلاصته إطراء اعمال ذلك القنصل الفاضل وغيرتهُ على المرسلين والتجار والرعية بوجه الاجمال ذاكراً اجراآتهِ النزيهة العادلة وما كان لهُ من المكانة والمحبة في القلوب. وقال كاتب آخر من ذات الرهبانية: «ان هذا الرجل المسيحي الشريف الاصل والكثير الغنى مالاً وفضلاً قد غنم محبة الجميع حتى اصبح مالكاً القلوب لا يجاريه في الكرم والسخاء احد». وقد ابان المسيو بيكه في تلك الظروف المؤلمة اي الثورة التي مرّ ذكرها ان المحبة المسيحيّة تعامل دون فرق اليهودي واليوناني القريب والغريب بالرفق مساويةً بين الجميع ضمن حدود العدالة. ومرماه كان تعزيز الدين وتقدّمهُ وقد خصص لذلك سني قنصليتهِ الست الاخيرة متخذاً جميع الوسائل ليثبت الكاثوليك في الايمان ويردّ المنفصلين الى الكنيسة الرومانيّة بما كان يصنعه من الخير مع الجميع وما يؤديه لهم من الخدم عند الباشا

﴿ محبّتـهُ للموارنة ﴾ واوّل مَن شملهم عطفهُ ومودّتـهُ هم الموارنة من بقايا المسيحيين الاوّلين فـانّهُ كان يحبّهم محبّة الاب لابنـهِ ويغمرهم بنعماهُ ويحميهم برعايتهِ ونفوذهِ ليس فقط في مدينة حلب بل في النواحي الخارجيّة ايضاً. وكان لهم بواسطة اصحابهِ في الخارج ملاكاً حارساً وقد اوصى اياه بمن كان منهم في ليون وطنهِ لاجل جمع الحسنات من فرنسة للشرق وقد اجاب الاب رغبة ابنهِ وفتح بيته منزلاً م ولغيرهم من الشرقيين. وقد اظهر محبتهُ للموارنة بالاخص في سنة ١٦٥٦ على اثر دث حلّ بكنيستهم. وهو ان بشير باشا السابق ذكرهُ جار على هذه الطائفة فوضع

على كنيستهم ضريبة باهظة وبما انَّ فقرهم لم يكن كافياً لاشباع مطامع ذلك اللئيم ضبط آنية الكنيسة كلَّها وما فيها من زينة ريثما يدفعون الضريبة فبات اولئك المساكين في حزن عظيم على عدم تمكنهم من إقامة طقوسهم الروحية بنوع لائق . فكان المسيو بيكه يشاطرهم احزانهم وينكسر قلبه لحالتهم وما كان يستطيع ان يساعدهم أبان الاحوال المشؤومة . وذلك قبل ان يستتبّ السلام في المدينة بفضل الباشا الجديد فهبَّ لرأب هذا الصدع الذي كان يؤلمه . ومن كتاب له مؤرخ في ٤ اذار سنة ١٦٥٦ الى الكردينال رئيس مجمع نشر الايمان يستدل انه قد عرض للمجمع حالة شقاء اولئك الموارنة الاعزاء . واستحلفهُ ان يساعدهم في حاجتهم هذه الماسَّة فاجاب المجمع طلبه لما كان يسمع ويعرف من غيرتهِ وتفانيهِ ووهب ثلاثمائة ريال مساعدةً لهذا العمل الخيري . ولمَّا لم يكن هذا المبلغ كافياً ليفي ما عليهم من ضريبة ليستفكَّ آنية كنيستهم اضاف اليه هو مئتي ريال واستردَّ الآنية من يد المغتصب وسعى لدى الباب العالي ووزراء السلطان الى ان يصون الموارنة وكنيستهم من كل حَيْف في المستقبل ونجح مسعاه فشكروا لهُ كل الشكر وحفظوا لهُ هذا الجميل وكانوا يعتبرونهُ حامياً عنهم ضدَّ ظالميهم وكان يشملهم بعطف الاب الشفيق

﴿القنصل بيكه واليعاقبة﴾ ثم وجه مساعيهُ الى ارتداد اليعاقبة اي السريان المنتسبين الى يعقوب البرادعي الراهب السوري الاصل تلميذ ساويروس الانطاكي زعيم الاوطاخيين الذي كان افسد بهرطقة اوطاخي في الجيل السادس انحاء ما بين النهرين وارمينية . وكان بيكه يؤمل ارتداد هؤلاء الضالين لما كان يراه فيهم من سلامة الاداب وحسن الاستعداد ويرجو ان يردَّ بواسطتهم السريان المنتشرين فيما بين النهرين اي في اورفا وديار بكر وماردين والموصل وبغداد وغيرها من المدن والقرى وفي سورية كدمشق والقدس وطرابلس وغيرها من المحالّ المتعلقة ببطريركية حلب . وكان اليعاقبة وهم في حلب خمسة الاف نفس يتبعون تعليم ديوسقوروس القائل ان ليس في يسوع المسيح الَّا طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وكانوا ينكرون المطهر ويقولون بأنْ لا ثواب للاخيار ولا عقاب للاشرار الَّا بعد يوم الدينونة وما كانوا يستعملون سرَّ الاعتراف صحيحاً ويستشفعون في قداسهم ديوسقورس وغيره من الهراطقة الذين رذلهم المجمع الخلقيدوني . وكانت القداسة عندهم بتلاوة الصلوات الكثيرة وممارسة

الاصوام والتقشفات الصارمة

فلم يدَّخر بيكه وسعاً في استمالة اولئك التائهين في بيداء الضلال مستعملاً جميع الوسائل الزمنيَّة والروحيَّة اذ يكرمهم ببعض الالطاف ويجمعهم ايام الآحاد والاعياد ويشرح لهم حقيقة التعليم المسيحي الذي تُعلّمهُ الكنيسة الكاثوليكيَّة ويبيّن لهم ضلال البدعة التي هم فيها. فكانوا يتلقَّون كلامه بتمام الارتياح والاصغاء ويؤثر فيهم اكثر من كلام احد المرسلين. وتوصلاً الى غايتهِ الشريفة في تعليم اولئك المساكين وإرجاعهم الى حضن امهم الكنيسة الرومانيَّة اختار بعض فتيانهم من ذوي القابليَّة للعلم والتقوى الصحيحة وارسلهم الى رومية حتى اذا استقروا هناك من منهل العلم والفضيلة اتوا بلادهم ونشروا فيما بين مواطنيهم انوار علمهم ورائحة يسوع المسيح الطيّبة وكان هو يقوم بنفقات سفرهم وتعليمهم اذ لم يكن يهمه بذل المال لنشر الايمان

وقد حاول ان يستميل بطريركهم المدعو شمعون ليزيل كل مانع يمنعهُ من ضمّهم الى الكرسي الرسولي. وتوصلاً الى ذلك كان يدعوه ذات المرار الى تناول الطعام معه ويبدي له من دلائل حبه وعطفه. وقد وفى عنه ما كان عليه من الدين ولاجل ذلك كان البطريرك يودُّ التقرُّب منه ويرغب في مصادقته معتبراً اياها شرفاً.

وعلى اثر وفاة رئيس اساقفة السريان اغتنم بيكه الفرصة وطلب من البطريرك ان يقلّده جميلاً عظيماً وذلك بأن يقيم على الكرسي الفارغ مَن فيه الكفاءة فاجابه البطريرك وقد ادرك مراده أنِ اعمَلْ على خاطرك. فسُرَّ بهذا الجواب وجمع الاباء المرسلين وخابرهم في الامر وافهمهم ان العناية دبَّرت ذلك لان على هذه الفرصة المناسبة يتعلَّق عليها ارتداد جميع السريان وسألهم ان يهدوهُ الى من يقوم بهذه المهمة الخطيرة. فانذهل المرسلون من غيرتهِ الغريبة ووجهوا انظارهم الى كاهن سرياني حلبي الاصل يدعى اندراوس قد اعتنق المذهب الكاثوليكي منذ سنين عن يد المرسلين اليسوعيين وبهمة الاب برونو الكرملي الحافي المرسل الشهير الذي مات برائحة القداسة سنة ١٦٦١

(لها بقيَّة)